

المفاهيم الاساسية لتحليل اللغوي عند العرب

د- عبد الرحمن ايوب

يكتب عن الظواهر اللغوية العامة وعن المبادئ التي ينبغي ان يلتزمها الباحث اللغوي .

ولا يملك المتأمل في كتب اللغة العربية القديمة الا ان يعتقد بوجود مبادئ عامة سار عليها البحث اللغوي العربي . وقد لاند كاتبا اخذ على نفسه حصر هذه المبادئ ولكننا ولا شك نستطيع من خلال المنهج الذي سار عليه المؤلفون ومن خلال التعليقات والتعليلات التي يفكرونها ان نعرف هذه المبادئ التي اثرت في توجيه بحوثهم وجهة او اخرى .

وساحاول في هذا البحث القصير ان اطلس بعض هذه المبادئ وان اثارنها بما يناظر من المبادئ الحديثة في التحليل اللغوي .

(1) الشكل والمضمون :

اللغة في نظر المحدثين نشاط مركب من عنصرين عنصر الشكل وهو الصورة المادية التي تتألف بهما الاصوات في كلمات او جمل وعنصر المضمون وهو المفهوم العقلي الذي يثيره في ذهن السامع نشاط المتكلم اللغوي .

من الواضح ان التحليل العلمي لمختلف الظواهر المادية والعقلية يعتمد على مجموعة من المفاهيم الاساسية التي تختلف باختلاف نوع الظواهر التي تدرس . فالمفاهيم التي يعتمد عليها علم مجرد كالمنطق والرياضة تختلف عن المفاهيم التي يعتمد عليها علم تجريبي او علم انساني .

وعلم اللغة من العلوم الانسانية التي يعالج ظواهر تخضع احيانا للقوانين الطبيعية الثابتة وتخضع احيانا اخرى للارادة الانسانية التي تقبل التغيير دون مبرر سوى رغبة فرد او جماعة في تغيير سلوكهم .

ورغم ما يحاوله البعض من الكشف عن مبادئ عامة للبحث اللغوي ومن ابتكار مفاهيم يصلح تطبيقها على مختلف اللغات ، فان لكل لغة خصائص تنفرد بها عن سواها مما يفرض على الباحث تعديل هذه المبادئ العامة بحيث تتناسب مع اللغة المعينة التي يهتم بدراسة .

والدراسة اللغوية العربية دراسة قديمة تسبق الدراسة المنهجية الحديثة بقرون عديدة . ومن ثم فمن المغالاة ان نتوقع ان نجد من بين اللغويين العرب من

ومن الطبيعي أن يقع المؤلفون الأوائل في محذور الخلط بين الشكل والمضمون حين اتخذوا الدلالة أساسا للتحليل اللغوي وأن يؤدي بهم هذا الخلط إلى متناقضات لاحظها اللغويون المحدثون. وتدحوا بها ، ورغبة منهم في تقادى ما وقع فيه الاتممون من أخطاء فقد أصر المحدثون على العزل بين العنصرين ودراسة كل منهما على حدة دون تأثر بالعنصر الآخر . وبالتالي فقد قامت مدرسة تعرف بمدرسة التحليل الشكلى Formal Analysis . وهى تقرر أن تركيب الكلمة أو الجملة عملية ميكانيكية يمكن أن تدرس وجدها بعيدا عن المعنى المفهوم منها ، وأنه بعد اتمام هذه الدراسة الشكلية يمكن أن يدرس ارتباط كل تركيب بمفهوم معين .

ظل هذا الاتجاه سائدا حتى أوائل النصف الثانى من هذا القرن حيث نشأت نظرية أخرى تعرف باسم Transformation Theory وهى تعتمد فى التحليل اللغوي على المفهوم باعتباره الأساس النفسى للتركيب اللغوي .

ومن ثم فاتها تقول بوجود نوعين من التركيب، التركيب الخارجى Surface Structure والتركيب الداخلى Deep Structure الاول منها فى نظر هذه المدرسة نتيجة نحصل عليها من اجراء عمليات معينة على التركيب الداخلى . وقد لاحظ زعيم هذه المدرسة ناعوم تشومسكى Chomsky أن بعض التركيبات اللغوية تفضى الى لبس الدلالة لا تكفى الدراسة الشكلية ففى التخلص منه ومثلوا لذلك بالمثالين He is eager to please هو حريص على أن يجامل و He is easy to please هو من السهل أن يجامل . والجملتان كما هو ظاهر متفقتان شكليا فى كل شىء فيما عدا كلمة eager فى الاولى و easy فى الثانية :

ولما كانت المدرسة الشكلية تقرر أن العلاقات النحوية علاقات بين انواع الكلمات لا بين نواتها ، ولما كانت كل من eager و easy من نفس النوع (الوصف) فانه طبقا لمنطق المدرسة الشكلية يتحتم أن تكون العلاقات النحوية فى كلتا الجملتين واحدة . وهذا غير الواقع لان المصدر المؤول « to please » يتعلق بفاعل الجملة الاولى « He » تعلق المبنى للمعلوم مع المسند اليه بينما يتعلق به فى الجملة الثانية تعلق المبنى للمجهول . ومن أجل هذا فان الطريقة الوحيدة لمبيان هذا الفرق لا تتضح من التحليل بواسطة المكونات

المباشرة (ic) Immediate constituents التى تنادى بها الطريقة الشكلية بل بالقول بأن كلا من الجملتين رغم اتفاتها التام فى التركيب الخارجى يختلفان اختلافا أساسيا فى التركيب الداخلى . فالجملة الاولى تتكون من جملتين هما He is eager (هو حريص) و He pleases (هو يجامل) أما الثانية فتتكون من He is easy (هو سهل) و He is pleased (شخص ما يجامله) ويمكن وضع هذا التفسير بكل بساطة بلغة النحاة العرب على النحو الآتى (فى الوقت الذى تؤول فيه الجملة الاولى بالجملة « هو حريص على أن يجامل الناس » فان الجملة الثانية تؤول بالجملة « من السهل على أى شخص أن يجامله ») .

وهكذا نرى أن الطريقة التحويلية هى فى صميمها عملية التأويل التى قال بها النحاة العرب وأن عملية التأويل شأنها فى ذلك شأن النظرية التحويلية تعتمد على المستوى الدلالى للعبارة حيث انها فى النهاية تعتمد على المدلول الذى بينه المؤول به فى توضيح التركيب الخارجى للجملة . واذن فالاساس المزدوج الذى يقول به النحاة العرب (أى التعبير والتأويل) هو نفس الاساس المزدوج الذى تنادى به المدرسة التحويلية ، التركيب الخارجى والتركيب الداخلى . كما أن الجانب النظرى لكل من الاتجاهين واحد وهو الاستعانة بالمعنى فى تفسير التركيب الخارجى للعبارة .

بقى عنصر آخر تقول به المدرسة التحويلية وهو « القواعد التحويلية » ولم يهتم العرب اهتماما كبيرا بمثل هذه القواعد بالنسبة للتحليل النحوى ولكنهم ابتدعوا نظما غنية من القواعد التحويلية فى علم الصرف . وباب الاعلال والابدال ليس فى حقيقة أمره إلا مجموعة من القواعد التحويلية كما نرى فى المثال التالى .

نلاحظ الارتباط الشكلى والدلالى فى الالفاظ « قال » ، يقول قائل ، قيل الخ . اذ نلاحظ وجود عناصر متغيرة وعناصر ثابتة فى كل من هذه الالفاظ ، أما العناصر الثابتة فهى « القاف واللام » وأما العنصر المتغير فهو الفتحة فى « قال » وهى تقابل الضمة فى « تقول » والهمزة فى « قائل » والكسرة فى « قيل » . والسؤال الآن هو أى هذه الاحتمالات الاربعة يعتبر أصلا تكون الاحتمالات الأخرى صورا له . قال الصرفيون بأن الواو (التى

بين الأمرين هو أن التأويل مبني على أساس الدلالة
أما القواعد الصرفية فأنها عملية تجريده لوحدة صرفية
معينة من أمثلة واقعية وهذه العملية تعتمد إطلاقاً على
عنصر المعنى وأن كانت تستعين به في حصر الكلمات
التي تنتمي إلى مادة واحدة .

(2) الوحدة الصوتية والحرف :

الصوت اللغوي هو مجموعة من الصفات الصوتية
تعتبر جزءاً واحداً من الأجزاء التي تكون الحدث اللغوي،
كالكاف من « ركب » ، وهي تتكون من صفات تسمى
الانفجار والهمس والرخاوة . ويدرك أبناء اللغة بفطرتهم
— وأن كان هناك من علماء الأصوات من يشك في ذلك —
وحدة هذه الصفات بحيث تكون الكل الذي نسميه صوت
الكاف . ولكن هذه الصفات قد تزيد أو تنقص تبعاً
للظروف التي يوجد فيها الصوت ، ففي المثال « كتب »
نقصت من هذه الصفات صفة الانحباس وفي المثال
« لك » وجد الانحباس ولم يوجد الانفجار . ومعنى
هذا بالضرورة أن يكون لدينا في الأمثلة الثلاثة السابقة
ثلاث كلمات لا كاف واحدة هي ثلاثة أنواع من الكاف ،
« الكاف المنفجرة والكاف المنحبة والكاف المنفجرة
المنحبة » أو بعبارة أخرى فإن الحرف الذي نسميه
كافاً يعني كافاً كلية تندرج تحتها أفراد ثلاثة من الكلمات
والكاف الكلية هذه هي الوحدة الصوتية أو الصوتيم
(Phoneme) وهي أمر اعتباري يتدرج تحتها أفراد
واقعية يسمى كل منها صوتاً (Phone).

ولم يفرق العرب بين الصوتيم والصوت تفريقاً
نظرياً واضحاً كما فعل المحدثون ولكن ما كتبوه في وصف
الأصوات بين بوضوح إدراكهم لهذه النظرية .

وقد استعمل سيبويه لفظ (حرف) للمعنى العام
الذي يعرف بالصوتيم أو الوحدة الصوتية ثم ذكر أن
هناك حرفاً أصلياً وفروعاً له . ومثل لذلك بالالف والالف
المالة والـف التخفيف وبالضاد والضاد الضعيفة والنون
والنون الخفيفة . الخ

واتجاه سيبويه هذا يذكرنا بتعريف دانيال جونز
للصوتيم بأنه عائلة من الأصوات يعتبر أحدها أصلاً
والباقي فروعاً له .

ولن ادخل الآن في الجدل الذي نشب بين اللغويين
المحدثين حول نظرية الصوتيم Phoneme theory

تمثلها الضمة الطويلة في (قول) هي الأصل وبالتالي فإن
أصل قال (أو التركيب الداخلي لها) هو «قول» وأصل
يقول هو «يقول» وأصل قائل هو «قاول» ثم وضموا
طائفة من القواعد المطردة لتحويل الواو في الأمثلة
كلها إلى الصورة التي تبدو عليها واقعياً في المثال . أي
أنهم في واقع الأمر قد قالوا بنفس الأمور الثلاثة التي
تقول بها المدرسة التحويلية وهي التركيب الخارجي
(اللفظ) والتركيب الداخلي (التأويل) والقواعد
التحويلية (قواعد الإعلال في هذه الحالة) .

وقد امتازت المدرسة العربية على المدرسة
التحويلية في هذا المجال بميزة هامة ذلك أن المدرسة
التحويلية تضع قاعدة لتحويل مثال بعينه وبالتالي فإنها
من باب التفسير لا التقييد . أما القاعدة الصرفية (أي
القاعدة التحويلية) عند العرب فإنها قاعدة تركيبية عامة
لا تفسر لفظاً بعينه بل تعمل في كل الظروف التي تنطبق
على القاعدة . وهذا هو بحق ما يمكن أن يسمى بالتقييد .
أما القواعد التحويلية التي يقول بها تشومسكي واتباعه
فهي كما قلنا ليست قواعد بل مجرد تفسير تحليلي
لاحتمالين عقليين في فهم عبارة معينة . وعلى سبيل المثال
نجد أن القاعدة العربية « إذا تحركت بالواو وسبقت
بالفتحة قلبت (أو تحولت) ألفاً » تنطبق على التركيب
الداخلي (التأويل) « قول » الذي يصير تركيباً خارجياً
هو « قال » . كما سنجد أنه منطبقاً على التركيب « قوم »
الذي يصير بناءً على نفس القاعدة « قام » . أما القاعدة
التحويلية الأخرى وهي « إذا وقعت الواو مضمومة
حذفت ضمتها للنقل وصارت الواو ضمة طويلة » فإننا
نجد أنها تنطبق على « يقول » التي تصير بناءً عليها إلى
« يقول » وعلى « مقول » التي تصير بناءً على القاعدة
نفسها إلى « مقول » أما القواعد التحويلية التي قال
بها تشومسكي فإنها قواعد لا تنطبق على إطلاقها بل في
نطاق مثال معين قد يحتوي على لفظ أو تركيب يمكن
أن يكون مزدوج العلاقة .

لست الآن في مجال الرد على المدرسة التحويلية
ولا على المدرسة التقليدية العربية في اتخاذ المعنى أساساً
للتبويب النحوي . ولكن ينبغي علي الآن أن أعترف بأنني
أوافق النحاة كل الموافقة على قواعدهم التحويلية الصرفية
بينما اختلف معهم كما اختلف مع المدرسة التحويلية فيما
يتعلق بالقواعد التحويلية النحوية (أي التأويل) والفرق

ولكنى اكتفى بالقول بأنهم قرروا ضرورة تحديد الظروف الكلامية التي يوجد فيها كل من أفراد الصوتيم ولا يمكن أن يوجد فيها سواه . وفى باب الإدغام فى العربية مثال لتوزيع أنواع حرف ما (أو الاصوات التى تتدرج تحت وحدة صوتية معينة) على مختلف الظروف الكلامية .

ولنأخذ مثال النون العربية وهى على أنواع :

- (1) نون لثوية مجهورة وتوجد فى جميع الحالات سوى ما يأتى .
- (2) نون رخوة انفية مجهورة وتوجد قبل الكاف مثل « ان كان » .
- (3) نون لهوية انفية مجهورة وتوجد قبل القاف مثل « ان قال » .
- (4) نون صلبة انفية مجهورة وتوجد قبل الياء والشين والجيم « ان يكن » « ان شاء » « ان جاء » .
- (5) نون شفوية ثنائية مستديرة انفية وتوجد قبل الواو مثل « ان وعد » .

(3) الساكن والمتحرك والحركة :

يقسم علماء اللغة المحدثون الكلمة « كتب » الى ستة أقسام الكاف والفتحة والتاء والفتحة والباء والفتحة . ولكن علماء اللغة العرب يقسمونها أقساما ثلاثة فقط هى الكاف والتاء والباء ثم يضيفون لكل من هذه صفة لاحقة بها هى الفتحة أو بعبارة أخرى فان العرب يعتبرون أن الكلمة « كتب » تتطلب ثلاث عمليات هى :

- (1) عملية اداء الكاف والتخلى عنها أى رفع مؤخرة اللسان الى السقف الرخو وحبس الهواء مع عدم الجهر ثم التخلى عن هذا الوضع النطقى .
- (2) عملية اداء التاء والتخلى عنها وهى تلامس طرف اللسان مع اللثة وحبس الهواء والهمس ثم التخلى عنها .
- (3) عملية اداء الباء وهى انطباق الشفتين وانحباس الهواء والجهر ثم التخلى عنها .

وجزئية التخلى فى هذه العمليات الثلاثة قد تتخذ اشكالا متعددة تبعا لوضع اللسان والشفتين وحركة الاوتار الصوتية فقد تكون جزئية التخلى هذه هى ما يسمى بتحريك الكاف بالفتحة أو بالضمة وقد تكون بالسكون فلا تسلك الاعضاء الصوتية نفس سلوكها

عندما تكون جزئية التخلى هذه فتحة أو كسرة أو ضمة . والشكل الذى تتخذه جزئية التخلى هو ما تسميه مدرسة التحليل الطيفى باسم « Cue » وصنيع العرب فى هذا المجال يفكرنا بالكتابة الاثيوبية التى لا تكتفى بصورة كتابية للساكن بل تضع صورة للساكن محركا بحركة ما تخطف عن الصورة التى تضعها لنفس الساكن عندما يكون محركا بحركة أخرى فالباء — على فرض أن النظام الصوتى فى الامهريه هو نفس النظام الصوتى العربى — تكتب على أربعة اشكال مختلفة ، شكل عندما تكون ساكنة وآخر عندما تكون مفتوحة وثالث عندما تكون مضبومة ورابع عندما تكون مكسورة . وهذا النوع من الكتابة هو ما يعرف باسم الكتابة المقطعية ، وتعتبر الكتابة العربية خطوة الى الامام حيث جعلت للصوتيم رسمه الموحد رغم اختلاف حركته . ولكنها اعتبرت الحركة شكلا من الاشكال الذى يبدو عليها الصوتيم وليست صوتيها آخر .

ويظهر لنا أن تركيبات اللغة العربية ذاتها تساعد على هذا الاتجاه وذلك للأسباب الآتية :

1 — الحركات فى العربية لا تزيد عن أربعة هى : عدم وجود حركة (سكون) وفتحة وضمة وكسرة . وبذلك فان مجال الخلط بينها ليس واسعا كما هو فى الانجليزية والصومالية التى تزيد عدد الحركات فى كل منهما عن عشرين حركة .

2 — تحدد الاوزان الصرفية نوع الحركة بعد كل ساكن من مواد الكلمة فاسم الفاعل من الثلاثى دائما مفتوح الاول (فتحة طويلة) مكسور الثانى . والفعل الماضى والمضارع المبنيان للمعلوم مفتوحا الاول دائما ولا يخرجان عن هذه القاعدة الا فى حدود قواعد أخرى كزيادة الهمزة على المادة فى مثل « أخرج » التى تتطلب ضم أول المضارع وكالبناء للمجهول الذى يتطلب طريقة أخرى من تحريك السواكن الخ .

3 — تتكفل القواعد الاعرابية بتحديد حركة اواخر الكلمات . من أجل هذا لم تجد الكتابة العربية فى أول أمرها حاجة الى وضع رموز خاصة بالحركات ، اكتفاء بالقواعد التركيبية فى مستوى الصرف والنحو التى تجدد نوع الحركات الى حد كبير .

صحيح أن هذا يعنى أن الكتابة العربية تعتمد على قواعد اللغة الصرفية والنحوية وهذا واضح فى نزعة قواعد الإملاء الى أن تعتمد على القواعد الصرفية .

وصحيح ايضا أن هذا يواجه المتعلم بصعوبة بينة حيث انه يبدأ تعلم اللغة بتعلم الكتابة بينما أن الكتابة تعتمد على النحو والصرف الذي لا يحيط بهما المتعلم عندما يبدأ تعلم الكتابة الخطيبة .

ولكن الامر من وجهة النظر التحليلية (وهى مستوى اعلى من مستوى التأليف التعليمى) أمر منطقي حيث أنه من المسلم به لدى علماء اللغة أن قواعد اللغة تعتمد مستوياتها كل على الآخر . وكما تعتمد القواعد الصرفية على القواعد الصوتية أو النحوية مثلًا فإن القواعد الكتابية بدورها يمكن دون حرج أن تعتمد على مستويات أخرى من قواعد اللغة . ومن هنا أهمل الكتاب العرب الاوائل كتابة الحركات فيما عدا الطويلة منها ، وقد رمزوا اليها بحروف سموها حروف اللين والمد . وفى تاريخ متأخر استعملت حروف اللين والمد للرمز للصفات الحركية لحروف المادة والزيادة وكتبت صغيرة فوقها (و) للضمة (ا) للفتحة (ي) للكسرة (هـ) للسكون . ولا يزال رسم المصحف يحتفظ بهذه الطريقة لتدوين الصفات الحركية أو الحركات .

وفى دراسة أصوات اللغة اتبع سيبويه وتلاميذه هذا المنهج فوصفوا الحروف أساسا ولم يصفوا صفاتها الحركية الا وصفا ضمنيًا حين تحدثوا عن حروف اللين والمد . ويقرر سيبويه صراحة أن الفتحة جزء من الالف والكسرة جزء من الياء والضمة جزء من الواو فيقول (وأما الحركات فهى من الالف والواو والياء ... الخ .

وبناء على هذا يكون كل من الالف والواو والياء مكونا من جزئين اللين (نصف الحركة) والمد (طول الحركة) .

وقد يكون جزء اللين (أو نصف الحركة) شبيها بالحرف وذلك اذا تبعته حركة أو ولى حرفا متحركا مثل و ، ي فى الكلمتين ، أو ، اى ، وهذا ما يسميه علماء الاصوات المحدثون بالانزلاق أو نصف الحركة Semi vowel أما بالنسبة للجزء اللين من الالف فله احتمالان إما أن يكون حركة وذلك اذا كان صفة لحرف كالفتحة فى « ك » وإما أن يكون انزلاقا . ونظرا لأن الفتحة لا مخرج لها حيث أن جميع الأعضاء الصوتية تكون متباعدة بعضها عن بعض فان الانزلاق لا يمكن أن يحدث

الا اذا اقتربت الاوتار الصوتية بعضها من بعض اقتربا يشبه اقتراب الشفتين للنطق بالواو وقد يشتد الاقتراب ثم يزول فنتج ما سماه سيبويه بالهمزة المسهلة . وقد يكون الانزلاق بطريقة أخرى وهو احداث دفعة هوائية ضخمة تحتقن بواسطتها منطقة الاوتار الصوتية . وبعد مرور الدفعة الهوائية يزول احتقانها محدثا صوتا شبه انفجارى وربما كان هذا هو ما يقصده سيبويه بالهمزة التى بين بين . وهذه العملية هى التى تسمى بازدواج القمة المقطعية (doubling the peak)

هذا ولم يقسم سيبويه بلدى ذى بدء الاصوات الى سواكن (consonants) وحركات (vowels) كما فعل المحدثون ولكنه قسم الاصوات الى اقسام متعددة هى المنفجرة والانفية والجانبية والمتردة وحروف اللين والمد ... الخ . ثم جعل الحركة جزءا من حرف اللين ، اى أن وصفه لحروف اللين يتضمن وصفه للحركات ضرورة انها الاخيرة اجزاء من الاولى ، وسيبويه هنا صوتى دقيق حيث أنه لاحظ ما لاحظه المحدثون من أن الفرق بين ما نسميه الواو والضمة والياء والكسرة هو مجرد الاستمرار الزمنى فى الأداء أو الطول فلو نطقنا بالكلمة « أو » واستمر نطقنا بالواو الساكنة فسيكون هذا الاستمرار هو الضمة وبالمثل اذا ما نطقنا بالياء الساكنة من « اى » فان اطالتها تنتج الكسرة .

واذن فالفرق بين سيبويه والمحدثين هو كالفرق بين شخصين يدعى أحدهما أن الرقم 4 ينتج من تكرار العدد 2 مرتين ، ويدعى الآخر أنه يتكون من تكرار العدد 1 اربع مرات . هو مجرد فرق فى الاعتبار لا فى الموضوع

الوصف المادى والوصف الوظيفى :

ويجدر بنا فى سياق الحديث عن الحركات أن ننقل عن سيبويه قوله بأن الحركات فى العربية ثمانية هى الضم والرفع والفتح والنصب والخفض والجر والسكون والوقف وأن هذه الثمانية من حيث الواقع اربعة لان الضم والرفع أمر واحد وكذلك الفتح والنصب والخفض والجر والوقف والسكون . ولكن نظرا لإمكان تغيير حركة الرفع والنصب والخفض والسكون نتيجة لاختلاف موقع الكلمة اعرابى فقد اعتبر هذه أمورًا مختلفة عن الضم والفتح والخفض والسكون .

وسنضع سيوييه هذا يعكس نظرية حديثة تفرق بين الصفات الذاتية لأفراد الوحدة اللغوية وبين الصفات الوظيفية للوحدة ذاتها . وقد وضعنا هذا الفرق في نرعى متعددة بمثال لا نرى بأسا من اعادته هنا .

لو قلنا بأن حارسا واحدا يحرس مبنى الكلية ، فإن هذا لا يعنى وجود حارس واحد دائما في كل ساعات النهار والليل ولا تتعارض هذه الدعوى مع وجود ثلاثة من الحراس يتناوبون فيما بينهم الحراسة هم محمد وعلى وابراهيم .

وليس من شك في صحة قولنا بأن في الكلية ثلاثة حراس هم محمد وعلى وابراهيم وصحة قولنا بأن حارسا واحدا يحرس الكلية ، حيث أن حارس بالمعنى الثانى تحديد للوظيفة أما بالمعنى الاول فإنه يعنى تحديد شخص ذى صفات بعينها هو أحد الثلاثة محمد وعلى وابراهيم .

ومثل هذا التفريق هو الذى قصده سيوييه فهو يعنى بالضم والفتح والخفض والسكون ذوات الحركات ويعنى بالرفع والنصب والجر والجزم وظائف قد تحقق بهذا الحركات (وهو الاعم الاغلب) وقد تحقق بأمر آخر كالرفع بالواو أو بالالف أو ثبوت النون والنصب بالالف أو بالكسرة أو حذف النون والجر بالفتحة أو بالياء والجزم بحذف النون أو بحذف حرف العلة .

ونظرية تقابل الصفات الوظيفية والصفات المادية هي المحور النظرى في دراسة علم اللغة الحديث . وقد نطلب نضوج هذه النظرية عشرات من السنين حيث وجدناها فيها كتب دى سوسير في العشرينيات (وربما كانت موجودة من قبله) ولا تزال محل نقاش نظرى حتى يومنا هذا .

المادة والاساس والصيغة :

بعد الانتهاء من حصر الوحدات الصوتية في اللغة يصعد الباحث الى مستوى أعلى من التحليل هو مستوى تركيب الكلمة morphology والوحدة الاساسية في هذا المستوى هي الصرفيم morpheme ويعرف بأنه أقل مجموعة من الوحدات الصوتية تؤدي معنى مثل im في الكلمة الإنجليزية impossible ويفرق علماء اللغة المعاصرون بين مجموعة من الاصوات توجد وحدها

في الاستعمال وتقبل اضافة اجزاء تركيبية اخرى اليها وتكون معها كلمة وبين سواها من المجموعات الصغرى ذات الدلالة فكلية possible تعتبر اساسا للكلمة impossible وقد نهج العرب نفس المنهج حين اعتبروا كلمة مسلم اساسا بنيت عليه الكلمة مسلمون ، غير انهم اضافوا مفهوما آخر تقتضيه طبيعة اللغة العربية واطلقوا على هذا المفهوم لفظا لمادة . والمادة أقل مجموعة من الاصوات تؤدي معنى ولكنها لا تصلح وحدها ان تكون كلمة مستقلة الاستعمال بل ولا يمكن النطق بها دون اندماجها مع مجموعة اخرى ذات معنى تسمى بالوزن .

والمادة والوزن مفهومان خاصان بالعربية وباللغات السامية وهما مفهومان تجريديان وليسا كالاساس جزءا يمكنه الاستقلال بذاته في الاستعمال . والمادة والوزن ليسا مجرد طريقة منهجية لتفسير بناء الكلمة في العربية ولكنها اعتباران يبنين عليهما السلوك الصوتي في تركيب الكلمة . نود ان يلاحظ ما يأتى :

(ا) الصوتيم في المادة وغير المادة :

قلنا بأن الصرفيم يتكون من صوتيمات . وقلنا بأن كل صوتيم يشمل مجموعة من الانواع يختار واحد منها للاستعمال في ظرف أو ظروف معينة لا يشاركه فيها سواء وكل هذا صادق بالنسبة للغة كالانجليزية . أما في العربية فيصدق هذا السلوك في غير صرفيمات المادة . ولنتقارن بين سلوك الصرفيم « و » عند وجوده في صرفيم غير صرفيم المادة وعند وجوده في صرفيم المادة .

في غير صرفيم المادة نلاحظ ان الواو تلزم صفة واحدة ولا يعترضها غير تأثيرات التجاوز كالتفخيم اذا جاوزت صوتا مخفيا مثل طور ، والافتية اذا جاوزت صوتا انفيا مثل إن وعد . أما فيما عدا ذلك فإنها تحتفظ بصفات الاساسية وهي الشفوية الثنائية والانطلاق وعدم الاحتكاك والجهر ، ولكن الواو في صرفيم المادة ذات شأن آخر فقد تكون واوا ساكنة وقد تكون ضمة تصرية أو طويلة وقد تكون فتحة طويلة وقد تكون همزة وقد تكون ياء وقد تسقط نهائيا .

واليك الامثلة :

في المادة العربية « ق و ل » الاصل الثانى « واو » ومن هذه المادة تشتق الكلمات قال ، يقول ، قائل ، قيل ، قل الخ . ولو ابعدنا من هذه الكلمات حروف الزيادة

من ياء المضارعة والف صيغة « فاعل » وأبعدنا كذلك الأصل الأول وهو القاف والأصل الثالث وهو اللام لوجدنا (1) الأصل الأوسط وهو الواو يبدو مرة فتحة طويلة ومرة أخرى ضمة طويلة وثلاثة همزة ومرة رابعة ضمة قصيرة . ومعنى هذا أن الصوتين « و » إذا كان من صوتيات المادة فانه يظهر في صورة واحد من هذه الاصوات الخمسة ومثل هذا السلوك قاصر على صوتيات المادة ولا يتعداها الى الصوتيات التي لا تكون اصولا في مادة .

ب) تجاوز الصوتيات :

للسوتيات في كل لغة سلوك معين ، فمنها ما لا يمكن ان يقع في اول الكلمة او وسطها او آخرها . ومنها ما لا يقع بعد النبر او بعد حركة معينة او قبلها . ومثال ذلك الصوتين G في الانجليزية وهو لا يوجد الا في آخر الكلمة كما في King .

ومنها ما يجاوز اصواتا معينة ولا يجاوز أخرى . وفي الانجليزية يمكن وجود المجموعة اول الكلمة ولكن لا يمكن وجود المجموعة TS في هذا الموضع وقد تعرض العرب لموضوع تجاوز الاصوات غير أنهم ميزوا بين تجاوز الاصوات في نطاق المادة وفي غير نطاق المادة . وبالنسبة لاصوات المادة خلصوا الى القول بقواعد ثلاثة :

(1) لا يمكن اجتماع صوتين متماثلين في اول المادة (اي لا يمكن كونها فاء وعينا) ومن ثم فليس في العربية كلمة فاؤها وعينها تاء مثلا ، اما الكلمة اتبع وفيها تجتمع تاءان (التاء المشددة) فاحدهما صوتيم المادة الاولى (فاء الكلمة) ابا الاخرى (فتاء الزيادة) ، اي أن اجتماع التائين يمكن اذا كانت احدهما تاء زيادة والاخرى من مادة الكلمة . كما يمكن اجتماع صوتين متماثلين في اول المادة نتيجة ادغام آخر كلمة سابقة مع اول كلمة بعدها كما في قولنا « اسكت توبة لريك » . فبالرغم من ان التائين صوتيم مادة فانهما ليستا من مادة واحدة بل من مادتين مختلفتين هما س ، ك ، ت ، و ، ب .

(2) يمكن أن يكون الصوتيم الثاني والثالث من صوتيم مادة متماثلين مثل ر ، د ، د ، ش ، ب ، ب . ومنها ردّ وشبّ .

(3) اذا كان الصوتيم الثاني والثالث غير متماثلين فيتحتم أن يكونا متباعدي المخرج . ولهذا فلا توجد مادة في العربية ثانيها وثالثها دالا وتاء أو ياء أو جيبا أو سينا وصادا أو طاء وتاء أو قافا وكافا . الخ . وذلك لتجاور مخارج هذه الصوتيات .

الشيء المهم هنا هو ان نظرية التجاور في هذا المجال اُرسيت متحققة على النحو المألوف في غير العربية واخوانها الساميات لان المادة كما قلنا ليست صورة مفترضة . والتأثر بالتجاورة يفترض أن يكون ناتجا عن الحركة العضوية الواقعية التي تمر من موضع النطق بصوت الى موضع النطق بالصوت الذي يليه . وهذا التداخل في الحركة العضوية التي تستمر حتى تشمل الموضعين هو الذي يسبب التأثر بالتجاورة . ولما كانت المادة لا تنطق ، امتنع بالضرورة التأثر الناتج عن تداخل الحركة العضوية .

ولا اود ان اتورط في تفسير هذه الظاهرة اللغوية غير العادية . ولكن يمكن ان يفترض ان المادة في العربية كانت في دور سحيق كلمة واقعية يمتنع في نطاقها اجتماع صوت بأخر .

ودراسة التغيرات الصوتية في نطاق المادة قد انتج دراسة طويلة قام بها اللغويون العرب بكل دقة وتفصيل . وهذه الدراسة تدخل في باب يعرف بالاعلال والإبدال .

ج) التجاور بالتقابل :

لا يقتصر تأثر الاصوات بعضها ببعض في العربية على الاصوات المتجاورة فعلا او على اصوات المادة بعضها ببعض بل قد يتعداها لتأثر اصوات في صيغة ما باصوات في صيغة ثانية مع ان الصيغتين لا تجتمعان اجتماعا واقعيا . وقد حصر العرب هذه الحالات حصرا دقيقا في باب صيغ الفعل وربطوا امكانيات التنوع الصوتي بين الصيغ بالتمدد والازوم او ببعض المعاني . واليك امثلة توضح ذلك :

(1) الضمة القصيرة التي بعد القاف في « قل » جزء من الوزن حيث انها نظير الضمة التي بعد الخاء في فعل الامر « ادخل » .

- 1 - فعل ومضارعه يفعل مثل ضربه يضربه
 - 2 - فعل ومضارعه يفعل مثل اخذه ياخذه
 - 3 - فعل ومضارعه يفعل مثل سمعه يسمعه
- وقد ارتبط تعدى الفعل هنا بحركة العين في كل من الماضى والمضارع او بعبارة اخرى فانه يمكن ان نقول بان كسر عين المضارع يحدث اذا فتحت عين الماضى وكان الفعل متعديا .

وهذا نوع جديد من التجاور ، اذا صح هذا التعبير وهو اعتماد نوع الحركة في كلمة اخرى لاتجاورها مجاورة واقعية استعمالية بل ترتبط بها بمجرد الاشتراك في المادة . اذكر هذا على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر لتوضيح هذه الظاهرة اللغوية الفريدة . ولئن شاء الاستزادة ان يرجع الى كتاب سيويه مثلا ليجد التفصيلات، والتفريعات التى تشهد بنضوج منهجى نادر

(د) اللواصق والوزن :

سبق ان ذكرنا ان بعض الكلمات يمكن ان تكون اساسا لتوليد كلمات اخرى وذلك باضافة صرفيمات ذات معنى ما الى الاساس . وقد تكون الصرفيمات المضافة بدورها كلمات تصلح اساسا ويمكن استعمالها مستقلة وقد لا تكون . وهذا النوع الاخير هو ما يسمى باللاصقة Affix واليك هذه الامثلة :

- 1 - الكلمة الانجليزية black bird (اسم طائر) تتكون من black و bird وكل منهما تصلح ان تستعمل كلمة مستقلة . وهنا يتعذر اختيار واحد من الجزاين ليكون اساسا .

- 2 - الكلمة impossible تتكون من im وتعبر عن النفي و possible وتسمى الاولى لاصقة امامية (او سابقة) prefix والثانية اساسا .
- 3 - الكلمة (مسلمون) تتكون من مسلم وهى الاساسى و (ون) وهى لاصقة .
- 4 - الكلمة العربية كليب تتكون من كلب وهى الاساس ومن الباء الساكنة بعد اللام وهى واسطة (وضم الكاف منها) .

ويمكن تطبيق نظرية اللواصق التى قال بها الاوروبيون على اللغة العربية في غير نطاق المادة . وقد فعل العرب ذلك في مثل جمع المذكر السالم والمؤنث السالم والتصغير . الخ ، اما بالنسبة للمادة فلم يقولوا بفكرة السوابق والوسائط واللواحق بل قالوا بفكرة الوزن . وهم في هذا على حق فان الاصوات الزائدة على مادة ك ، ت ، ب في كلمة مكتوب . وهى الميم والفتحة التى بعدها والضمة الطويلة بعد التاء لا تنفصلان في صورة السابقة «م» والواسطة «و» ولكنها وحدة تركيبية لا يمكن انفصال جزئها .

هذه بعض الاسس النظرية التى بنى عليها التفكير اللغوى عند العرب . وهى كما قلت لم تذكر صراحة في مؤلف مستقل او في جزء خاص من مؤلف . ولكن اللغويين العرب قد يشيرون الى بعضها اشارة جانبية في بعض مناقشاتهم ، التى قد تتعرض لامكار شبيهة بما تعرف اليوم من نظريات لغوية وفي يقينى ان الاتجاه الى البحث عن الاسس النظرية للدراسة اللغوية العربية سيفتح امامنا مجالا خصبا جديدا لا يستطيع ان يلجه من لم يتمكن من فهم التراث اللغوى العربى فهما مستنيرا .